الثقافة والتقنية والتحديث

— المنصف وناس —

شهد الوطن العربي منذ القرن الخامس عشر انهياراً اقتصادياً واجتماعياً ، منذ ان تغيرت الطرق التجارية من البر الى البحر ، أي من وسط الجزيرة العربية الى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط . وهذا الانهيار لم يولد فقط تخلفاً تكنولوجيا وحضارياً بالمعنى الشامل ، بل انعكس على الثقافة العربية وخلق انماطاً من التخلف أدت الى انسحاب الفكر. وليس ادل على ذلك من أن بداية اكتشاف العرب لقيمة تراثهم لم تكن الا تحت تأثير عاملين اثنين :

ـ الاصطدام بحملة « بونابرت » العسكرية وواقع التمزق والتفتت اللذين تعيشهما الخلافة العثمانية ، مما أشعر النخبة الحاكمة بضرورة التفكير في مشروع تحديثي وعقلاني .

ـ الاصطدام بعملية الغزو الثقافي الاستعماري المقصود منها إبادة الثقافة العربية ، وهدم هذا التراث ، وهدم كل مؤسساته التقليدية .

وهذا السعي الاستعماري الغربي الى ابادة هذه الثقافة وتحويل التراث العربي الى مجرد شعوذة هو الذي كان وراء تفكير إصلاحي عربي ، يمثل محمد عبده وجمال الدين الأفغاني رمزين من رموزه الاساسية .

ولقد كانت حملات الاستعمار وراء سعينا الى اكتشاف هذا التراث ، ومحاولتنا لفهمه والتعمق في دلالته المباشرة وغير المباشرة . وليس مبالغة القول بأننا واجهنا منذ القرن الخامس عشر محاولات منظمة لإبادة الثقافة العربية والمجتمعات إليها .

ولقد اعتمد الاستعمار الغربي مجموعة من التقنيات تهدف في جوهرها الى هدم البناء الداخلي للمجتمعات العربية . وليس مثل هذا السلوك عبثاً بقدر ما هو اضعاف متعمد للثقافة العربية ، وتقنية من بين تقنيات اخرى لمراقبة المجتمعات العربية في اطار ما يسمى بالإمبريالية الثقافية L'impérialisme culturel ولعل التركيز على الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية في تحليل الظاهرة الاستعمارية رؤية منقوصة لأنها تهمل الاعتبار الثقافي المبني على موازين قوى متناقضة .

أما حضارة اليوم ، فانها حضارة استهلاكية تهدف الى تدمير بناء الاكتفاء الذاتي والى خلق نموذج من الثقافة المهجنة والتابعة مرجعيا وفكريا . فالاستهلاك ليس فقط تبعية تجاه التقسيم العالمي للعمل وتجاه المركز الاستعماري le centre capitaliste ، بل هو أيضاً نمط من الثقافة الدخيلة التي تخنق كل محاولات الابتكار والإبداع الذاتي النابعة من طبيعة وخصوصيات المجتمع . فالإمبريالية الثقافية هي الوجه الثاني من الاستعمار الرأسمالي الغربي ، وعدم التفطن الى هذه المسألة ، هو الذي جعل الدارسين والباحثين في مجال تأثير الاستعمار يتوجهون بالدراسة والتحليل الى النواحي الاقتصادية والاجتماعية ويغفلون الاعتبار الثقافي . قد يكون التركيز على الاستعمار كتوسع جغرافي واستيطان أرضي نافعاً من حيث البحث والدراسة ، ولكن التركيز على الاعتبارات الثقافية أنفع من حيث الدلالة والقيمة التحليلية . واذا ما حاولنا البحث في الآثار السلبية المنجرة عن الاستعمار ، فإننا نلاحظ حدوث انفصام داخل بنية المجتمعات العربية جعلها عاجزة عن معاودة النهوض وصنع النموذج التحديثي الخصوصي ، بحكم انها اصبحت طرفاً استهلاكياً في اطار السوق العالمية . والوجه الثاني من هذه المجتمعات هو حفاظها على بنية ثقافية لاهوتية ومتخلفة ، ولذلك دخلت المجتمعات العربية عصر التقنية بفكر لاهوتي . فداخل المجتمع الواحد تتعايش أرقى الأنماط الاستهلاكية والتقنيات المستوردة واساطير بدائية ورؤية سلفية وقدرية لحياة والوجود .

وليس هذا التقييم شتيمة أو نوعا من التهجم بقدر ما هو تقييم لواقع سلبي في مجمله يتسم باستهلاك مفرط للتقنية وبوجه لاهوتي مغرق في اللاهوتية لا يمت للتفكير العلمي المعاصر . واذا ما قمنا بمقارنة بسيطة، فاننا نلاحظ ان المجتمعات الغربية استفادت من التقنية بعد ان تجاوزت مرحلتين اساسيتين :

ـ مرحلة علمنة الدولة وفصل الدين عن المؤسسات القائمة .

ـ تحقيق قدر أعلى من العلمانية للثقافة الغربية وتوضيح كبريات المسائل المتعلقة بالدين والديمقراطية والحرية . قد لا نستطيع الجزم بأن الثقافة الغربية قد استطاعت ان تطهر نفسها نهائيا من الفكر اللاهوتي ، ولكننا لا نستطيع القول بأن مشروع العلمنة وفصل الدولة عن الدين مشروع غير رائد في الثقافة الغربية لأنه ولد فكراً يسارياً نقدياً متجاوزاً للثقافة الإقطاعية »(*) ورسخ تقاليد اجتماعية وسياسية جديدة لا تعرفها مجتمعات أخرى في نفس تلك الفترة التاريخية . ومن ثم لا يمكن ان نقارن بين المجتمعات الأوروبية التي استطاعت أن تحقق نمطا

(*) ان مفهوم الثقافة الإقطاعية يعني « الأيديولوجيا» أي نسق المفاهيم والقيم السائد في فضاء اجتماعي معين ، والثقافة تعني البنية الفكرية المعبرة عن مجمل العلاقات الاجتماعية واشكال ملكية وسائل الانتاج . .

تنمويا اشراكيا un modèle participatoire وديمقراطية مؤسسية ـ ولو انها بورجوازية ـ تطمح اليها بلدان العالم الثالث ، وبين المجتمعات العربية التي تعيش انماطا قصوى من التبعية الاقتصادية والثقافية يعجزها عن وضع النمط التنموي الخاص . وليس مبالغة القول بأن الممارسة الاستهلاكية للتقنية المستوردة ليست فقط خاصية من خاصيات الواقع الغربي الحالي ، بل هي نمط حياة مجتمعية كاملة . وهذا الاستهلاك للتقنية دعم الرقابة على المجتمعات المتخلفة ، ذلك ان التقنية الرأسمالية في واقعها الحالي اعادة انتاج النظام العالمي اللامتكافىء ، ومحافظته على بقاء المصالح الرأسمالية . ولعل في ذلك مظهراً من مظاهر الموت البطيء للإنسان العربي ولثقافته التاريخية .

ان كل الدراسات التي تحدثت عن التخلف وطالبت بضرورة تحديث المجتمعات العربية ركزت على أن جوهر التخلف تقني ، فيكفي أن نستورد التقنية الرأسمالية حتى نكون بذلك قد واجهنا مشاكل التأخر الحضاري ، وحدثنا نظرتنا للعالم . وهذه النظرة التقنوية الداعية الى مبدأ التراكم التقني L'accumulation technique قد وصلت الى فضاء مسدود لأمرين رئيسيين :

ـ لأنها عمقت الفجوة التقنية . بحكم أن الاكتشافات تتطور وتتدعم كل يوم .

ـ لأن التقنية بمنطقها الشمولي ساهمت في تفتيت الوطن العربي بحكم تفاوت الاستفادة من التقنية حسب الانتماء الاجتماعي والامكانيات الاقتصادية . فداخل المجتمع الواحد يتعايش عرب منفيون في القصور وآخرون يتعرضون لوطأة الصحراء والعطش .

والاستيراد المفرط للتقنية ولد انفصاماً داخل الثقافة العربية جعلها تتراوح بين الانتماء والتقنية .

ان اللاهوت بالمعنى الأسطوري حاضر في العقلية العربية والتفكير العربي ، وهذا التثبيت Fixation على اللاهوت يعود الى أن الفشل يمس كل مظاهر الحياة في الوطن العربي . فهو فشل المناويل الحضارية والأنظمة السياسية والاختيارات التحديثية ، اضافة الى هذه العلة الملازمة ، أي ازمة المراجع الحضارية التي تعيشها المجتمعات العربية ، فلا يمكن ان نخفي هذا البحث المستمر عن الهوية الحضارية .

ولعل ما يمكن ان نلاحظه هو هذا التغيير في مفهوم اللاهوت اذ بدأت وطأة المعنى القديم تخف لتحل محلها معانٍ جديدة نلاحظها مع ظهور هذه الحركات الدينية والسياسية العنيفة رمزاً وفكراً ، وهذه الحركات لون جديد من اللاهوت الجديد، وتجذير له .

ان التقنية يمكن ان تفيد كل الشرائح الاجتماعية اذا ما احسن توزيعها وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص في الاستفادة منها ، ولكن الأوضاع الحالية لا تساعد الا على تدمير البنية الثقافية التقليدية التي كانت تشكل هيكل الاندماج . ففي هذا الإطار يمكن ان نفهم ظاهرة تضخم المدن العربية والتفقير المستمر للأرياف العربية . وقد احدثت هذه التقنية المستوردة وغير المدمجة شرخا في البنية الثقافية التقليدية ونمطا من العلاقات المتوترة داخل المجتمعات العربية . ولمواجهة هذه الوضعية ، لجأت الطبقات الحاكمة الى استعمال الدين كأيديولوجيا برغم اتصافها بعلمانية واضحة . ولذلك تواجه الجماهير هذا التوظيف الأيديولوجي للإسلام برموز دينية شعبية وعنيفة وعودة مرضية للماضي وتركيز عليه ، وبقدر ما يتعمق التباين بين الفئات الاجتماعية ، وتتجذر عملية الاستيراد للتقنية ، يتولد لدى الجماهير تمسك بالرموز التقليدية واساسها الدين .

والسؤال الذي يمكن ان يطرح هو السؤال التالي : هل يمكن ان نصالح بين الثقافة والتقنية واللاهوت ؟

ان التقنية منطق ورؤية وممارسة ، واللاهوت أيضاً منطق ورؤية وممارسة ، والمسألة مرتبطة. بالواقع الثقافي ، ذلك ان الثقافة العربية ـ مثلاً ـ ما استطاعت ان تكتسب طابعاً تقدمياً الا بعد نكسه حزيران ١٩٦٧ تلك النكسة التي رسخت الانتكاسة العربية لا على الصعيد العسكري بل على الصعيد الثقافي والحضاري خصوصا ، عندها فقط بدأت تنبني تقاليد نقد جذرية وعميقة ، ولعل في ذلك ما يؤكد أن رؤيتنا للعالم ومنهما للحياة لا تتحدد الا من خلال منطق الصدام بالمحيط الخارجي ومقارنة الذات بقوى خارجية . لقد كانت نكسة حزيران نداء الى كل المثقفين والباحثين العرب لمناقشة قضايا تتعلق بالديمقراطية والثقافة واللاهوت ، ومحاولة تحديد هوية الانسان العربي ، والتفكير في مبادىء كادت تتحول الى بديهيات مثل العروبة والاسلام والقومية والحضارة المتوسطية . ولأول مرة طرحت فكرة ضرورة تبني الفكر اليساري في الثقافة العربية طرحا جديا خاصة من قبل مثقفي اليسار الفلسطيني (صادق جلال العظم ـ ناجي علوش ـ منير شقيق . .(وقدمت اجابات وردود على الاتجاهات القائلة بفرعونية مصر وأهمية الحضارة المتوسطية وأسبقيتها في التأثير والفاعلية . ولأول مرة يشعر العربي بانه متعدد الهوية ، ضائع ومرتبك بين نخوة الماضي ومسؤولية الحاضر وطموحات المستقبل .ونحن لا نستطيع أن نقدم اجابة نهائية على هذا السؤال مادام ثمة فروق جذرية بين أقطار الوطن العربي ، فمنذ السنوات الأولى للاستقلال ظهرت فسيفساء من السياسات في المجالين : الثقافي والتقني ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتركيبه السلطة الحاكمة . ذلك أنه كثيراً ما تناط مهمة ضبط الاختيارات الثقافية بجهاز الحزب الحاكم ، الذي ليس الا مؤسسة متضخمة تسيطر حتى على جهاز الدولة . ومن ثم تكون التقنية تثبيتاً وتعزيزاً لحركة سياسية ما ، أو شكلاً دعائياً لا يحدث تغييراً هيكلياً في بنية المجتمع . وينجرُّ عن ذلك تفاوت بين الخطاب الأيديولوجي والواقع الاجتماعي القائم . ولعل الاشكالية التي يمكن أن نشير اليها هي ان الخطاب الأيديولوجي العربي بشقيه المحافظ والتقدمي يعالج مسألة التخلف التقني بالدعوة الى استجلاب التقنية وزرعها زرعاً غير مدمج دونما تفكير فيما قد ينجر من توتر داخل البنية الثقافية العربية . ولكن الناحية التي تكون قد

اسقطت ، هي أن مفهوم التقنية ارتبط دائماً في الوعي العربي بالهيمنة الاستعمارية والاحتقار الحضاري الغربي ، وبالتالي ، فان تدمير رموز هذه التقنية عمل وطني ونضالي. لقد خلق الاستعمار ريبة تجاه كل المؤسسات القائمة ، لأن الفلاح العربي كان دائماً مستغلاً من قبل الآلة التي تسلبه المردود والفائض والجهد . وأثناء فترات الاستقلال ووصول العنصر الوطني للسلطة ، حافظت هذه العقلية على وجودها ، وتتجسم بين الفترة والفترة في قمة الغضب الشعبي حيث تتعرض بالدرجة الأولى المؤسسات الرسمية ومحلات الاستهلاك التقني الى التدمير والعنف . ولعل ذلك ما يعني أن تلقينا الانسان العربي ثقافة قوامها التقنية والصورة والاستهلاك بدون أن يكون قد استعد لها استعداداً كاملاً ، منها حيث الاستيعاب التاريخي والتأقلم ، تلقين مسبق ومرتبك . فاذا كانت المرحلة السابقة هي مرحلة استفادة المستعمر من التقنية لقهر الشعوب المضطهدة ، فان المرحلة الحالية هي مرحلة هيمنة البورجوازيات العربية على التقنية في اطار علاقة طفيلية بالبروبول الرأسمالي .

فلا غرابة اذن ان تعمد الجماهير الى تحريم هذه التقنية والى تحريم الثقافة الحاملة لها ، قد يصل الى حد العنف المدمر والانفصام الداخلي للمجتمع وتكون مجتمعات صغرى داخل المجتمع الشامل .

لقد كان الاتجاه السائد يعتبر الحركات الدينية عملاً سياسياً ، وهي ليست في كل الحالات ممارسة سياسية ، انها تعني ايضاً رد فعل ضد التحديث المفروض وحفاظاً على الذاتية الثقافية (اي الرجوع للسلف الصالح) .

إن مراحل الاستقلال الوطني ساعدت ـ تحت شعارات العصرنة والتحديث ـ على خلق توتر في هياكل الاندماج عجزت الهياكل البديلة اي المستحدثة على امتصاصه او جدولته في مسارات اخرى . ولذلك تنتشر ثقافة التشكيك والنكتة السياسية والاشاعة الساخرة ، وقيم الحد الأدنى من المجهود والربح السريع . .

وكل ذلك اعطى مدناً عربية بوجهين متناقضين : وجه الضواحي الفقيرة المهشمة ، ووجه المباني الفخمة الفاخرة . وهكذا تتحول الثقافة الى ثقافتين واللغة الى لغتين ، تختلف من حيث قيمها ومفاهيمها ورؤيتها للتقنية . . .

ومن ثم ، فالبون شاسع بين لغة تحمل قيما استهلاكية لقوى سياسية واجتماعية مستفيدة ، ولغة تمثل الإحباط والعزل الاجتماعيين .

ليس تشاؤماً القول بأن التقنية في ممارستها الحالية مصدر خطر لهدمها نظام التوازن الداخلي والنموذج الاجتماعي وفرضها نمط تحديثي تابع .

التقنية ، التحديث والامبريالية الثقافية

ان اختلال موازين القوى ليس فقط ناتجاً عن هيمنة المستعمر وانبهار المهيمن عليهم به ، وانما هو ناتج أيضاً عن القيم التقنية والاتصالية التي يمثلها ، فليست هناك هيمنة اقتصادية الا في اطار هيمنة ثقافية وعلمية . وهذه الهيمنة الثقافية تغذيها السيطرة على التقنيات المعقدة في مجال الصورة والاتصال والإشهار . وهذه الهيمنة تمارس تحت شعار حرية الأفكار من اجل جدولتها وفرض نمط ثقافي يحمل ثوابت سياسية ومفاهيم اقتصادية والقيم الاجتماعية التي تخدم مصالح القوى المهيمنة .

فالامبريالية الثقافية تجلب للمتربول امكانيات اقتصادية هائلة بما تخلقه من حاجيات اقتصادية مفتعلة ، وبما تسعى اليه من نفي للخصوصية وفرض تجانس ثقافي عقيم. ان التجانس الذي تسعى الى تكريسه حضارة الصورة خطر على خصوصيات الثقافات العالمية ، لأنه ينطلق من مبدأ تحقير كل الجهات التي تعارض هذا النمط الثقافي ، ويبدو ان بعض البلدان تواجه الهيمنة الثقافية بانغلاق شوفيني وانعزال عن العالم الخارجي .

فهل هذا هو الحل الموضوعي ؟

ففي سنة ١٩٧٢ مجمل ما صدرته محطات التليفزيون الأمريكية الى بلدان العالم الثالث من مسلسلات وثائقية فقط يتراوح بين ١٠٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ ساعة بث تلفزي . واذا اردنا التأكيد على تأثير الامبريالية الثقافية فانه يمكن ان نشير الى مثل « الشيلي » حيث يؤثر نمط الحياة الأمريكية على الطبقة المتوسطة ، مما سهل دخول الجيش الى السلطة .

وتلعب تقنية الصورة دوراً اساسياً في ترسيخ الامبريالية الثقافية حيث تنتج عشر شركات امريكية افلاما تستغرق ٥٠٪ من كامل حصص البث في تليفزيونات العالم . وتتوزع مجلة « التايمز » خارج الولايات المتحدة الأمريكية بمعدل ١,٤ مليون نسخة(*).

ان الهيمنة الثقافية تستند الى تقنيات توزيع متطورة للأفلام وبرامج التليفزيون والجرائد والملصقات الجدارية والأشرطة ، وتقوم بعملية التوزيع شركات متعددة الجنسيات متخصصة في الإعلام والدعاية . وكل محاولة لتطبيق اشتراكية الإعلام يقع التشهير بها على اعتبار انها نقص لمبدأ حرية الاعلام ، ولذلك تعتبر البرازيل اول مستهلك « لصابون الشركات المتعددة الجنسية »!! وتستأثر الشركات المتعددة الجنسيات في بلدان مثل نيكاراغوا والسلفادور وغواتيمالا وهندوراس بكل انشطة الدعاية والاعلان ، في حين انها في المكسيك تأتي في المرتبة الثانية .

ان خطر الامبريالية الثقافية لا يكمن فقط في تمرير انماط سياسية معينة وانما في خلق حاجيات استهلاكية وهمية لا قدرة للجماهير على اشباعها . ان هذه الشركات الدعائية لا تكتفي

(*) انظر T. Guback, journal of communication hiver 1974, p 92.

فقط بمحاصرة كل اتجاه للتحرر من التبعية (تجربة الشيلي مثلاً) بل تسعى الى ربط مصالحها المباشرة مع مصالح قوى اجتماعية وسياسية داخلية .

فالعمل الدعائي يخضع لتخطيط محكم يراعي طبيعة الوسائل التنفيذية الفاعلة والحساسية النفسية لمختلف القوى الاجتماعية . لقد كان العمل الدعائي في الشيلي أثناء حكم حركة « الوحدة الشعبية » (١٩٧٠ - ١٩٧٢) عملا يسيطر عليه اليمين الذي يدعم كل الجرائد والمجلات النسائية والشبابية . وتقف وراء هذه المجلات فرق دعائية مكونة من علماء نفس وعلماء اجتماع للتوجيه وتحديد المحتويات . . .

ملاحظات ختامية :

ان ثلاثية التقنية والتحديث والهيمنة الثقافية هي الوجه المباشر للنظام العالمي الذي تفرضه الشركات الرأسمالية متعددة الجنسيات ، وترسخه تقنيات متطورة(*) في اطار نظام السوق العالمية . لقد أصبحت تجارب الانغلاق الاقتصادي والثقافي تجارب مستحيلة في عصرنا الحالي ، وذلك لأن الاستقلال اصبح طوبياً يطمح اليه ولا يدرك .

اذن كيف يمكن ان تكون المواجهة ؟

ان هيمنة المستعمر لا تتدعم الا قياساً مع ضعف المستعمرين . . وهذا الضعف ليس فقط اقتصادياً ، فهو تقني وعلمي ، وبالدرجة الأولى ثقافي .

- تونس -

مراجع عربية

- النقد المزدوج : الدكتور عبد الكبير الخطيبي . دار العودة - بيروت ص ٢٧ . . . ص ٣٦.
- الأساس الأيديولوجي للنهضة العربية د. بشارة خضر مجلة شؤون عربية.

— 4 hommes et leurs peuples: Sur - pouvoir el sous dé - veloppement, jean Lacouture: Seuil, p.135.

— L'impérialisme culturel: Le Monde Diplomatique, décembre 1974, p.27.

— Islam et dialogue: Med. Talbi: Maison Tunisienne de l'édition, 2ème édition.

(*) تمتلك اذاعة صوت امريكا ٣٢١ محطه موزعة في العالم وتبث برامجها بأكثر من خمس لغات . .

دار الآداب تقدم

مؤلفات حنا مينه

- المصابيح الزرق
- الشراع والعاصفة
- الثلج يأتي من النافذة
- الشمس في يوم غائم
- الياطر
- بقايا صور
- المستنقع
- الابنوسة البيضاء
- المرصد
- حكاية بحار
- أدب الحرب

(بالاشتراك مع د . نجاح العطار)

- الدقل
- المرفأ البعيد
- الربيع والخريف
- ناظم حكمت : السجن ، المرأة ، الحياة
- ناظم حكمت : ثائراً
- هواجس في التجربة الروائية